مدخل

لكل مجتمع قيمه الخلقية التي اتفق أفراده على صحتها وعلى ضرورة تطبيقها والالتزام بها، ولضمان ذلك فقد وُضعت قوانين خاصة تحكم أسلوب التطبيق وتعاقب الخارجين على هذه القيم، كما أن في كل مجتمع أعرافًا وتقاليد يلتزم الأفراد بتطبيقها دونما حاجة إلى القانون وقوَّته، وهذه القيم والأعراف والتقاليد يتعلمها الفرد منذ نعومة أظفاره، فهو يستدخلها ويستدمجها باستمرار، ثم يقوم بتعميمها على حالات مشابهة، وهكذا تنتظم لديه الصورة القيمية والخلقية في مجتمعه بشكل تراكمي وعن طريق التعديل والتحوير لكل سلوك لا ينسجم وهذه القيم والأعراف.

والطفل عند ولادته لا يمتلك أي معيار قيمي أو أخلاقي خاص به؛ لأنه لا يدرك مفاهيم الجماعة ولا يفهم اعتبارات الصواب والخطأ، لكنه ما يلبث أن يتعلم هذه المفاهيم من خلال العلاقات الاجتماعية داخل أسرته، وبالذات من خلال ارتباطه بوالديه، وعليه يمكننا أن نقول: إن اللبنات الأولى للبناء الخلقي هي تلك التي يرسيها الوالدان، وبعد أن يتعلم المشي والكلام وينطلق من بيئته الصغيرة هذه (الأسرة) إلى البيئة الأكبر، ويتصل بجماعة الأقران ويتعلم معاييرهم فإنه يبدأ بمطابقة سلوكه مع هذه المعايير رغبة منه في تقييم سلوكه وفقًا لهذه المعايير، وعندما يصل إلى المراهقة فإن المجتمع يبدأ بمطالبته لكي يكون ذا سلوك منسجم ومتطابق مع النظم السائدة في المجتمع، ويترافق مع ذلك شعور ذاتي من قبل هذا المراهق بالمسئولية التي تحتم عليه أن يأخذ بنظر الاعتبار مصلحة الجماعة أولًا، ومن ثم رغباته الشخصية ثانيًا.

إن ما يجب التأكيد عليه هنا- وللمرة الثانية، وبشدة - هو دور الأسرة، ذلك أن السلوك الخلقي لا يأتي من فراغ بل هو سلوك تقمصي في بداياته، فالطفل يتشرب سلوك والديه كما هو، صحيحًا كان أو غير صحيح، فالوالدان بالنسبة له أنموذج وقدوة يقتبس سلوكهما ويتفاعل معه ويتعلمه ويطبقه، وهذا الأمر يقودنا إلى مسألة

أخرى مهمة أيضًا، لابد من التنبيه إليها والتذكير بها، تلك هي العلاقة بين الوالدين مع بعضهما من جهة، والعلاقة بين الوالدين والطفل من جهة ثانية، فالأُسر المتصدعة والمفككة لا يمكن أن تشيع فيها القيم الخلقية الإيجابية، كما أن الأسر التي تعيش برودًا عاطفيًّا، لاسيما بين الوالدين والأطفال؛ فإن المتوقع أيضًا أن تكون نتائج عملية التقمص سلبية لدى الأبناء، ويمكن أن نضيف نموذجًا سلبيًّا آخر يكثر شيوعه بين الأسر، ذلك هو النموذج الدكتاتوري أو الوالد التسلطي Authoritarian Parent الذي يكون قدوة سيئة لأبنائه، بينما الأسر التي يشيع فيها الدفء العاطفي Warmth وروح التسامح Permissiveness نجدها تساعد على التقمص الإيجابي الشديد الذي يجعل الطفل مقلدًا ومبادرًا بشكل يجعله مطمئنًا للاحتفاظ بحب والديه والرضا عنه كلما أدَّى دوره التقمصي بالشكل المرغوب لديهم.

* * *

obeikandl.com